الفصل الرابع
المرأة في ريفنا

تحدثنا في الفصل السابق عن حياة الفلاح المصري وعن خلقه ونفسيته بما سمحت لنا معرفتنا به وبما استطعنا أن نجلي صورته على وجهها الحق أو القريب من الحق للبيئات المدنية التي تجهله ، ونحب الآن في هذا الفصل أن نتحدث أيضا عن المرأة الريفية كما تحدثنا عن الرجل، لأنه اذا ذكر الرجل فيجب أن تذكر معه المرأة جنبا لجنب ليتآخي النوعان ويتآلف الشقيقان

نظن أن القارىء الكريم قد يكون كوّن لنفسه الآن رأيا تصوريا في المرأة الريفية المصرية بعد ان وقف على ناحية من حياة الرجل الريفي المصري وخلقه ونفسيته ومركزه الاجتماعي العام ، وذلك لأنه قد عودتنا الانسانية وكذلك التاريخ أن نرى تطور المرأة يلازم دائما تطور الرجل، وان الحكم على الرجل في أى أمة من الأمم يتبعه حتما أو غالبا الحكم على المرأة حكما متناسبا متضامنا مع الحكم الأول ، وما دمنا الى الآن قد فهمنا بعض الفهم مركز الرجل في القرى فليس بعسير علينا اذن أن نفهم بعض الفهم أيضا مركز المرأة !

نرى من الواجب علينا قبل أن نبدأ فى الحديث عن المرأة في الريف أن نسجل لها فى هذه البداءة حسنة هي خير حسناتها وفخرا هو خير فخار في جهادنا النسوي ، ذلك هي أنها خير ساعد لرجلها وأحسن معين لشريكها كأنها تفهم حق الفهم مركز المرأة بأزاء الرجل وواجبات الزوج حيال زوجها، وكأنها تقدر حق التقدير معنى الشركة الزوجية ومعنى التعاقد الروحي الذي هو خيرما نريده نحن أنصار المرأة

المرأة القروية على جانب كبير من النشاط الحي العملي ومن الوفاء لزوجها ومشاركتها اياه فى عمله مشاركة فعلية ، فهي تخرج معه سافرة الوجه أمام كل الرجال ، لا تتحرج ولا تتقنع بقناع قد يحجب وجهها وقد لا يحجب سوءتها ، تخرج معه الى الغيط أو الى الحقل وتسحب معه مواشيه وحميره وأغنامه ، ترعاها في الحقول والمراعي وتسقيها من الترع وتقوم بأكلها وبحاجاتها جميعا ، تقف بجانبه في الغيط تساعده في عمله ، وقد تحمل الفأس مثله وتفلح بها الارض أيام الغراس ، وقد تسهر بجانبه ليلا وتكشف عن ساقيها وتشمر عن سواعدها وتروي الارض ، وقد تمسك هى المحراث بجلد كريم وصبر جميل أو تحمل الردم والسباخ مع الرجل ، تجلس على النورج أيام الدراس ولاتخشي على نفسها هجير الحر وقت الظهيرة ولاتشفق على وجهها السافر من أن تلفحه الشمس أو يسفعه التراب ، وعند الحصاد تراها خير معين لزوجها ، وأحيانا تجدها موفقة

عليه فى عمله وأشد منه نشاطا وتوفيقا . ففى أيام جنى القطن وهو موسم الفلاح تجدها جنبا لجنب معه مشمرة عن ملابسها يجري النشاط في دمها فيزيدها نضرة وجمالا تحت الشمس المحرقة لا تكل عن العمل ولا تتبرم من الكد ولا تشكو من التعب ولا تتأذي من الشمس ولا من الشوك المبثوث وسط الزرع بكثرة

فى كل هذه المواقف من العمل تري المرأة جنبا لجنب مع الرجل سافرة كاشفة عن وجهها لكل رجل في الغيط أو في الطرق العامة أو فى دارها ، فهى لا تعرف للقناع أو للحجاب سبيلا أو حاجة فقناعها هو عفافها ، وحجابها هو شرفها ، هو ثقتها بنفسها وأيمانها بطهرها ثقة تهيمن على كل ملكاتها وإيمانا يتغلغل في كل أعضائها ، وماذا يجدي القناع المقنعات اذا كان وراءه نفس تلعب بها الاهواء المنكرة الخبيثة ووجه تحماق فيه عينان براقتان حائرتان يكشفان عن غرض سافل ويمان عن هوى مجرم ويترجمان عن عهر مكتوم واستعداد محبوس للشهوات الوضيعة ، لماذا تلجأ الى ذلك القناع وهى تري في نفسها قدرة كافية لأن تجالس مع الرجل وتحادثه وتعامله وتسايره محتفظة بجمالها وعفافها وبشرفها ، معتبرة اياه أخاها لا خصمها ، لا تحسب إلا أن القناع على النقيض يزيد في الاغراء وفي الفتنة ويساعد على التهتك وعلى الفساد الخلقى وعلى الغواية ، ولقد أذكر هنا قول المرحوم قاسم أمين في هذا المعنى : « من ألزم لوازم الحجاب أنه يهيىء الذهن فى الرجال والنساء معا لتخيل الشهوة بمجرد النظر أو

سماع الصوت » وقال أيضا : « لاريب فى ان استلفات الذهن الي اختلاف الصنف من أشد العوامل فى أثارة الشهوة »

وكل هذا متفق وطبيعة الناس وبديهة العقل والمنطق فكلما اعتدنا علي شيء الفناه وأصبح لدينا أمرا عاديا لانأبه له كثيرا وكلما بعد عنا شيء وحيل بيننا وبين معرفته ورؤيته كلما ازداد لهفنا عليه وتقصيه ، والقناع اذن عامل كبير علي جعل المرأة مغرية للرجل وقد يتخذ فى كثير من الاحيان عند كثير من النساء للغواية وللفتنة وللتجميل ، وقد يتخذ ستارا لبعضهن يرتكبن من ورائه ماتسول لهن نفوسهن ومايشاء لهن الهوي بعيدات عن الانظار وعن الاقاويل مؤمنات بأنهن فى منعزل عن الكاشحين والعذال وعن الشبهات، من الاحتقار للشرف أى احتقار ومن الزراية بمعنى العفه أي زرايه أن تكون هذه القطعة السوداء أو البيضاء من القماش أو الحرير الشفاف هي ضمان هذا الشرف وهي الحارس على هذه العفة دون أي اعتبار للوازع الخلق ولوحي الضمير وضابط القلب!

اذا كان السفور مدعاة الى تدهور الخلق كما يريد أن يقول بعض الجامدين الذين لايعرفون في الحياة الا : لا ! فلماذا تكثر حوادث السطو علي الاعراض فى المدن عنها في الريف والنساء في الاولى معظمهن وخصوصا الطبقة الوسطي متحجبات متقنعات بهذا الستار الصفيق وبهذا « الحارس القوي الامين ؟

ليس السفور هو الذي يفسد الخلق أيها الجامدون وإنما هو سوء

التربية الحقة الكاملة الذي يخرق كل حجاب ويفتح علي المرأة كل باب من الفساد كما قال بطل الدعوة النسائية المرحوم قاسم أمين

تخرج المرأة الريفية سافرة كما قلنا ومع ذلك لايحدث شاب نفسه أن ينظر اليها نظرة خبيثة ولاهي تقربه منها وتغريه وتبادله الغمز واللمز تحت ستار شفاف بمعزل عن الانظار ، لان كل منهما يري فى الثانى أخاه كل يوم فلا حاجة من التغامز والاستشفاف والبحث عن مواضع الجمال وأماكن السحر والفتنة والاغراء ، ومع كل هذا جميعاً فليس السفور مطلقا بباعث على الغواية والخضوع لسلطان الجمال فليس أسباب الفتنة مايبدو من أعضاء المرأة الظاهرة كما يقول المرحوم قاسم أمين بل من اهم أسبابها مايصدر عنها من الحركات فى اثناء مشيها ومايبدو من الافاعيل التي ترشد عما في نفسها

وكم نأمل نحن انصار المرأة ان نري كل نسائنا مثل المرأة القروية يسفرن عن وجوههن ويمزقن الذي يسمونه حجابا ويخرجن الي العالم والى الانظار والي الحياة ليبعثن فى الجو المصرى القوة والحركة والنور والجمال والخير وليعطرنه بورود الحق وأزاهير القداسة والجمال والسحر والفتنة ، لقد حان الحين بأن نعيش في صراحة وشجاعة وفي نور بعد أن سئمنا وعفنا العيش في الغموض والجبن والظلام ! نريد أن تخرج المرأة المصرية من محبسها المظلم وعالمها الضيق الى الفضاء الواسع الحر ، لتعرف مركزها وتقدر واجباتها وتعمل مع الرجل في اسعاده وهناءته ومشاطرته البؤس والنعمى على السواء

وتشاركه في العمل على خدمة البلاد وعلى سعادة الانسانية جميعا وتأخذ نصيبها معه من الواجب حيال الاصلاح الوطني والبعث القومي، نريد أن تدخل ميدان العمل والانتاج متسلحة بمواهبها النسوية الراقية وبقدرتها على تجميل الوجود للرجل وعلى بعث القوة والنشاط في نواحي العمل والانتاج المختلفة، نريد أن نحس بأثر « رسالة المرأة » في الرجل وفي الحياة وان نخضع لالهام المرأة ونعمل بوحيها! كم نتمنى ونأمل أن نرى منا نساء يبعثن بألهامهن وبجمالهن وبسرهن عظمة العظماء وفلسفة الفلاسفة وأدب الادباء واختراع المخترعين ويخلقن بهذا الالهام العالي وبهذا الايحاء القدسي ما خلقت نساء أوروبا وأمريكا من أمثال «ماركوني» الذي لم يخترع تليفونه اللاسلكي إلا حينما أقعدته كل السبل عن الاتصال بحبيبته ففكر في خلق هذا التليفون اللاسلكي الماركوني ليرضي به حاجة نفسه من حبيبته قبل أن يفكر، أن يرضي به حاجة الانسانية جميعا من نفعه واستخدامه! نريد اذن أن يبرز نساؤنا الى الوجود الحي ويقمن برسالتهن الكبرى ويتولين عملية البعث والخلق !!!

كم هو جميل عند ماتري قبيل الغروب جماعات النساء كسرب الطيور حاملات جراتهن من الفخار في عجب وتيه متوجهات الى النزع متحدثات في طريقهن بأعذب الاحاديث، وأين عذوبة الحديث في خير من النساء ؟

تمشي تلك النساء سافرات الوجوه في حشمة وجلال، مبتسمات في

عفة وكمال ، تتسلسل أشعة الشمس الذهبية الوردية الغاربة بين سعف النخيل وأوراق الصفصاف المتدلى لتقع على وجوههن النضرة الجميلة فتكسبها حمرة الشمس الوردية جمالا لتعوضها بذلك الجمال عن نضرة النعيم وترف الغنى ، هذه الوجوه النضرة الجميلة الناعمة تراها في بساطة جمالها وعفو طبيعتها لا تلجأ الى مسحوقات الكيميا ولا أصباغ المدنية ، بل هي الجمال كما أراد الله أن نحبه ونعشقه فيه ، لم تفسده يد الانسان ولم تلوثه أصباغ الصناعة ، جمال الله لا جمال الانسان !

ونحب أن نقول بهذه المناسبة ونقرر حقيقة لا نشك فيها هى أن المرأة الريفية من جهة « النسائية أو الانوثة » تختلف كثيراً عن اختها المدنية ، فالأنوثة في الثانية اكثر حياة وقوة وألين رخاوة ونعومة وأشد اغراء وفتنة وسحرا ، وذلك لأنها تحسن طرق الاغراء والفتنة فى حديثها وفى حركتها وفي نظراتها بخلاف اختها الريفية فان جمالها ينقصه « الحيوية » وتنقصه أيضا القدرة النسائية على البعث والخلق والايقاظ ، وهي اذا كانت جميلة لا تحسن كثيراً أن تجعل من جمالها سحرا وفتنة للقلوب وغذاء للعقول ووحيا للافكار كما قد تفعل جميلات المدن الفاتنات !

سبق ان قلنا ان المرأة الريفية خير شريك للرجل بكل ما تسعه معاني الشركة ، ولكن ماذا تعمل غير عملها العملي فى الغيط ؟

يكاد يكون برنامج عملها اليومي المنزلي كالآتي : — لا تلبث

أن تصحو من نومها حتى تحتلب جاموستها أو بقرتها وتزيل ما تحتها ، ثم تكنس دارها وتخرج حاملة جرتها لتملأها من الترعة. وان كان لديها فراخ أو ما اليها من بط وأوز تقدم لها طعامها ، واذا لم يحضر زوجها في الغداء حملت سلتها وبها غداؤه وتوجهت اليه في الغيط تقدمه له ، وعند الغروب تخرج كما قلنا الى الترعة تغسل أطباقها أو تملأ جرتها ، ثم تعود لتطبخ للعشاء اذا كان لديها ما تطبخه ، ثم ينقضي النهار ويعود اليها زوجها . وطبعا ان كان لديها عمل في الغيط مع زوجها تشاركه فيه .

هذه الأعمال البسيطة أبلغ حدود البساطة فى حياة المرأة المنزلية هى كل ما تعمله المرأة تقريبا في يومها ، لانه من الطبيعى ليس لها منزل كما نفهمه يحتاج الى التنسيق والعمل الدقيق الطويل ، وفى فترات راحتها تجلس الى جاراتها في الحارة او في الدار يتبادلن الأحاديث المختلفة والحديث شجون كما يقولون فيذكرن فلانة التى ستتزوج والاخرى التي طلقت والثالثة التي أحضر لها زوجها جلابية جديدة أو خلخالا ثقيل الوزن والرابعة التى ضربها زوجها ضربا مبرحا لأنها لم تبع شيئا مما عندها ليشتري به دخانا أوشاي ، وهذه الأحاديث المختلفة لا تخلو دائما من نميمة أو اغتياب ، وهذه هي اسوأ ظاهرة خلقية في المرأة الريفية ، كثيرة الحديث ، كثيرة الشجار لان حدود أعمالها في المنزل قليلة ودائرتها ضيقة ، ففى أي شيء تقضي فراغها اذا لم يكن لهـا عمل فى الغيط ؟ فى الحديث

حيث تجوز به المحبوب والمكروه والمألوف وغير المألوف ، وهي اذا لم تجد لها عملا تعمله أخذت تقطع الوقت بهذه الأحاديث الطويلة الفارغة أو أخذت (تعدّد) ان كانت محزونة وتلك تكاد تكون عادة شاملة في ريفنا كما يقول استاذي الجليل الدكتور طه حسين !

ظهر لنا الى الآن ان المرأة الريفية خير ما تكون وفاء واحتراما لرجلها ، تساهمه معه في أعماله العملية وتأخذ نصيبها معه في السعي حول رزقهم وحياتهم ، ولكن ما لون حياتها المنزلية وأعمالها الداخلية التي هي صلب واجباتها واولاها بالعناية والاهتمام ! كيف تدير منزلها و كيف تسوس مملكتها لو صح أن يكون لها مملكة ؟ كيف تقوم بتربية اولادها أو بعبارة أدق وأهم كيف تقوم بوظيفتها الكبرى ؟

تعيش المرأة في القرى في منزلها عيشة مهملة قذرة بأوسع معني تتصوره من الاهمال والقذارة ، فهي كما تعلم جاهلة جهلا فاحشا فلا نعجب كثيراً اذا رأيناها في منزلها صورة صادقة من جهلها وغبائها ، حتي لو ان نابليون لو كان قد رآها في دارها وحياتها لأصدر مرسوما رسميا بأنكار وابطال ما قاله عن المرأة هذا القول الخالد : « المرأة التى تهز المهد بيمينها تهز العالم بيسارها » نعم ! كدنا نيأس نحن أنصار المرأة المصرية من النجاح في ناحيتنا النسوية كلما رأينا العدد الاكبر والغالبية العظمي بل الساحقة من نسائنا على هذا

الجانب المخجل من الجهل ومن الاهمال ، ولكننا نعالل النفس بالآمال ولا نريد ان ندع لليأس سبيلا الى قلوبنا لانا نؤمن بسنة التطور وبقانون الحياة ولو أن تحقيق هذه الآمال فى ريفنا قد يكون لا يزال بعيداً مستكنا فى بطون الغيب ، وبهذه المناسبة نوجه الى القائمات بالنهضة النسوية وبخاصة الى الزعيمة الكبيرة السيدة هدى هانم شعراوى رجاء ملؤه محض الاخلاص وحب الاصلاح والنهوض الاجتماعي والتعليمي والادبي لنسائنا عامة ، ان يوجهن جانبا كبيراً من عنايتهن وجهودهن المشكورة المحمودة الى القرى والى الريف المصرى فهناك يجثم الخطر الوبيل على تقدمنا ، وهناك يربض الداء الكمين الذى يهدد نهضتنا ويعوقها عن الازهار والنمو !

حمدنا للمرأة الريفية مشاركتها للرجل في اعماله الخارجية وأعجبنا بنشاطها ووفائها له أبلغ حدود الاعجاب ، ولكن لا يمكننا أن ننسى أو نغفل ان تلك الطاقه الجميلة من الزهر يتخلل ورودها وأزهارها السم والشوك !!

تصورى معي ايتها القارئة وأيها القارىء امرأة لا تزال يدها ملوثة بأوحال البهائم والمواشي ثم تضن عليها بالغسيل من الكسل أو من قلة الماء ، ولا تأنف أن تشرع مع كل ذلك في عجين خبزها أو عمل جبنها أو حليب لبنها ، تصوروا أمرأة قلما تعرف أن تحوك جلابيتها أو ان تغسلها غسيلا ترتاح اليه العين وتميل اليه النفس ، تصوروا امرأة لا تفهم عن سياسة دارها وتدبيرها اكثر مما تفهم

من زريبة مواشيها ، تصوروا امرأة لا تعرف كيف تكون أماً مطلقا بكل ما تسمه هذه اللفظة الكريمة المقدسة ، تترك اطفالها في فسحة الدار أو في الحارة يعبثون ويتمرغون في التراب وعلى الاكوام حيث هناك مجمع قاذورات القريه وأوحالها من دورها المختلفة ، ولقد تلقى الأم طفلها احيانا في القاعة أو في فسحة الدار ينتحب من البكاء والعويل وتقفز عليه الكتاكيت والبط والفراخ تعبث بعينيه وتلعب على وجهه ثم تذهب هي لتقضي حاجة لها أو تجلس الى جماعة من النساء ينلن الناس بالحديث والغيبة ، أما الطفل فليمت أو فليعش (وهو وبخته) ، وكم من الاطفال عندنا كانوا يكونون نابليون أو الاسكندر أو فولتير لو عني بتعليمهم ولو عنيت بهم أمهاتهم في عهود الطفولة وتعهدنهم في هذه السن التي يتأثر بها الطفل بما تلقنه له وما توجهه اليه وتعامله به أمه ، فليس من أحد على ما نظن ينكر أثر الام في ابنها ، وهذا نابليون يحدثنا عن أمه وعن أنها الاثر الاول والعامل الاقوى في عظمته وفيما صار اليه اسمه وصيته ،

ولكن هل ننتظر من أمهاتنا وخصوصاً في الريف ذلك الاثر وهذا الواجب ؟

كدنا نيأس حقاً أيها القائمات بشئون المرأة ولو أننا نؤمن بأن لا يأس مع الحياة كما قال المرحوم مصطفى كامل ! هنا يجثم مرض وبيل وداء خطير كما قلنا يهدد كياننا القومي وأسرتنا وأطفالنا وناشئتنا تخشى ان يفتك بمجموعنا مالم تمتد اليه يد الاصلاح والعلاج ،

فوجهن عنايتكن قبل كل شيء الى موضع الداء الكمين الخطر هنا ، الى المرأة القروية التي تحيا حياة كلها جور وأهمال وجهل وقذارة نخجل ونبكي عليها ومن أجلها ، فيارجالات مصر ويا أنصار ونصيرات المرأة ! عطفا ولو قليلا على القرى فهناك يكمن الداء وهناك يجثم الخطر وينتشر الوباء ، تلك وصمة كبيرة في جبين فخارنا القومي لن يرضاها نصير للمرأة فاعملوا يا أنصار المرأة على ازالتها لتمزقوا صحيفة عار وخزي في سجل نهوضنا القومي واصلاحنا الشامل وأحيائنا المصري !

* **

نريد الآن بعد ان كشفنا عن ناحية من نواحي حياة المرأة الريفية ان نصور تلك الناحية الداخلية البحتة للمرأة في الريف وهي الحياة القروية الزوجية

نظن أنه قد أصبح يسيرا علينا الى حدما أن نتصور تلك الحياة الداخلية مادمنا وقفنا الى حدما أيضاً على حياة الرجل ونفسيته ومركز المرأه وحياتها في القرى ، وهذه الحياة الداخلية النفسية قد تصح أن تكون المقياس الذي يساعدنا على تصوير وفهم الحياة القروية عامة وبخاصة الداخلية منها تصويرا وفهما أقرب الى الصدق ، وبهذا يمكننا أن نستجمع ونحصل فكرة ماعن هذا الجانب من الحياة المصرية المجهول أو الغامض لمن لايعرفه أو لايريد أن يعرفه والا فأين توجد حياة أغزر مادة للكاتب وأوسع دائرة لخيال

المصور وتأملات الفنان من حياة تجمع الرجل والمرأة تحت سقف واحد يعكس كل منهما على الآخر خلقه وذهنه ومذاهبه ويتبادلان الاخذ والعطاء ، وحيث تبدو فيها حسنة كل منهما وسوأته بارزة للناقد وواضحة جلية لريشة المصور ؟

ذكرنا حين تحدثنا عن الرجل في الريف انه لا يكاد يفقه أو يشعر بمعنى « الحب » الذي قد نفقهه هنا ونشعر به ونقدره ، ونريد الآن هنا أن نشرك المرأة أيضا في هذه الصفة أو هذه النفسية الشعورية . فهي بعيدة كل البعد عن حياة « الحب » غريبة عن الشعور به شعوراً ساميا نبيلا يحرك عواطفها بأنبل المشاعر وأسمى المعانى ويرقق خلقها ويهذب كائنها ويملأ وجودها حياة وقوة ونوراً ، هى كأخيها الرجل لا تفهم من الحب إلا ذلك الضرب الخبيث من الاستغواء الجنسى والا هذا النوع الحيواني من أسفل دركات الحب ، فهذا القلب الذي يسكن بين جنبيها لا يخفق بالحب السامي الخالد فى نبله وفي عليائه ولا يكون رسول رحمة بالناس أو طبيب أدواء الرجال حتى لو استفحل الداء وعظم المصاب

يقول « جوت » فخر الالمان « ما قيمة العالم بأسره في نظر القلب اذا ما خلا من نعمة الحب ؟ » ولكن المرأة الريفية المصرية بخاصة لا تقوم بوظيفة قلبها الذى منح لها ليخفق وليطرب وليحب ، ولذلك فقيمة العالم عندها شيء كلا شيء وعدم كوجود ، واذا كانت حياتها هكذا من الجمود الروحي ومن الموت الشعوري ومن البلادة

في الحس وفى العاطفة فهل نتصور أن يكون لها حياة روحية بجانب تلك الحياة المادية الكثيفة تعيش فيها بقلبها ومن أجل قلبها لتجمل وجودها وتزيد حياتها خصبا وانتاجا ونورا ؟ وماذا تكون تلك الحياة التى يحياها الناس لو لم تكن خصبة منتجة منيرة ؟ وكيف لنا أن نصبر على مضض حياة لا نشعر فيها بحب يخفف عنا آلام تلك المرحلة من العمر ويغذو عواطفنا وميولنا وذهننا ، ويخلق عبقريتنا ونبوغنا ويوقظ خامد شعورنا ، وينسينا مرارة الزمن وقسوته وهموم العيش ونكده ويجعلنا نهزأ بالشوك ونسخر من الألم ونتلذذ بالعذاب ونستحلى العلقم والصاب ؟ وكيف لنا ان نعانى من هذه الحياة ما نعاني ونرضى بنكدها وبظلمها وبشقائها صابرين مرغمين ثم لا نحس بأن لنا قلوبا فى حاجة الى أن تخفق والى أن تحب وخلقها الله لتنمو وتنهل من نبع الحب وتزدهر وتحيا في رياض العشق ، فنحجرنا عليها انما هو تعطيل لوظيفتها وجحود وكفران بنعم الخالق الاعظم ؟ ومتى كان الحب كفرا والعشق البرىء جريمة في أسفار الله المقدسة وفي شرائع العدالة ؟

ولمن اذن خلق نور القمر وندى الازهار وعبير الرياحين وظلال الشجر وزقزقة العصافير ونوح الحمام وغناء البلابل ورجرجة الماء ومداعبة النسيم

اذا لم يكن للحب ، واذا لم يكن للأخوين الحبيبين ، الرجل والمرأة ؟

اذا لم تكن حياتنا التي نحياها حياة قلوبنا وعواطفنا وشعورنا وأرواحنا فانا لنؤثر أن تنتزع منا هذه القلوب التي لاتخفق ولاتحب حتى لا نشعر بوجودها بين جنوبنا معطلة خامدة ذليلة أسيرة ، وحتى لا نطأطىء الرأس ذلة وصغاراً أمام ظلال الشجر ونور القمر ورجرجة الماء !

فلتأخذ منا طائعين راضين ان عجزت عن القيام بوظيفتها وواجبها، فلن نريدها أبداً لعب الاطفال ولا عرائس الصبية ، ولن نذرف عليها دمعة !!!

ونعود الآن الى موضوعنا ، اذا كان هذا هو حياة الرجل والمرأة في الريف من ناحية العواطف والشعور أو بعبارة أدق من الناحية الروحية فهل ننتظر ونتصور ان تكون الحياة العائلية الريفية مدعمة بالحب قائمة على التوافق والرضى من ناحية الجنسين ؟ ولكن كيف لنا أن نسأل هذا السؤال وننتظر هذا الجواب ونحن نرى أن معنى « الزواج » في مصر عامة وفى القرى بخاصة لا يفهم منه أكثر من أنه وسيلة او بمعنى أصح معمل لتفريخ النسل كعامل الكتاكيت ، فالزوج او الزوجة اذا تعطل هذا المعمل عندهما أو ابطأ فى التفريخ والتخريج صبّا اللعنات على الزواج واستغاثا لله وللأولياء وللعرافين وللدجالين أن ينتظم هذا « المعمل » وأن يعاود حركته وأنتاجه ، حتى أصبح الحرص على أنتاج هذه « المعامل » شهوة متحكمة

مستبدة بأمرها لدى الكثير جداً من أبناء مصر المتزوجين وبخاصة الريفيين والريفيات منهم .

ومن أشد المصائب والنكبات التي تتألب على هذا الفلاح أن تجد له ما لا يقل عن خمسة و ستة اولاد وقد يبلغون أحيانا ثلاثة عشر او اربعة عشر ومع ذلك قد لا تجد في بعض الاوقات رغيفا في داره، فاذا حدثته بوجوب تحديد النسل بحسب الرأي الطبي جلبا لمنفعته ودرءا للشقاء وللبؤس عنه لوى وجهه عنك وقد يتهمك في دينك أو في عقلك وشعورك ! !

لا يفهم كثير عن الزواج في مصر الا أنه وسيلة الى اشباع الشهوات الجسمية وأرضاء حاجات البدن والحس ، والا أنه طريقة من طرق الاستثمار والاستغلال والتجارة بالفتيات الطاهرات البريئات من أساليب ومن ظلم وتحكم الآباء والامهات !

ما العلاقة بين المال والقلوب والمستقبل أيها الآباء المجرمون في حقوق أولادكم : وما معني زواج تزيفون به ما تسمونه وثيقة الزواج افكا وزورا ؟ دون ان يكون للزوجين وحدهما رأي في هذا الزواج ؟ وما معنى زواج تزف فيه مجهولة الى مجهول وتساق فيه الفتاة البريئة سوق الانعام الى من تجهله وقد تبغضه ؟

ومن المدهش حقا أن نجد الناس هنا في مصر حتى في الريف اذا شاءوا أن يشتروا حزمة من الفجل أو الكراث أو أقة من اللحم أو أي صنف مما تعودوا ان يأكلوه أو يشربوه لأشباع بطونهم

وتغذية جسومهم حرصوا جد الحرص في انتقائه ونقده بين الرفض والقبول وتغليب الذوق الفني في الأكل أو في الشرب أخيراً ثم أخذوا يساومون البائع ويجادلون التاجر ليغلبوه على رأيهم ، ولكن اذا شرعوا في الزواج مسألة المسائل ومشكلة المشاكل ومفتاح المستقبل الغامض اندفعوا كالمسعورين او كالعمي الذين لا يبصرون دون ان يحققوا وينقدوا كما كانوا يحققون وينقدون حين كانوا يبتاعون الفجل او البقول ، فكأن بطونهم أغلى لديهم وأسمى من من قلوبهم ومن ارواحهم ، وكأن الحاضر لديهم أولى بالعناية من المستقبل وكأن الزوجة او الزوج لا يتساويان في السوق مع الكراث او البطاطس ، واخجلاه بل واحسرتاه ! !

ولقد يحضرني هنا قول المصلح الأول المرحوم قاسم أمين في هذا المعنى هذا القول المقتطع من قلبه والمنبعث من روحه ، قال رحمه الله : « أرى الواحد من عامة الناس لا يرضي ان يشتري خروفا او جحشا قبل ان يراه ويدقق النظر في أوصافه ويكون في أمن من ظهور عيب فيه ، وهذا الانسان العاقل نفسه يقدم على الزواج بخفة وطيش يحار أمامها الفكر »

واذا كانت هذه الحال وهذه الفكرة ستدوم فستشتد أزمة الزواج عندنا تعقيداً وقحطا مادام هذا الزواج التجاري يهدد العائلات ويبعث الفساد في البنين والبنات ويقوض الاسرة ، وكم أحب هنا أن اذكر قول « ماكس نوردو » في هذا الموضوع

قال « متى بطل النظر الى المصالح المادية فى أمر الزواج وعادت المرأة مختارة في ميلها غير مضطرة الى بيع نفسها. وأصبح الرجال يتنافسون على أحراز ودها بذواتهم لا بأموالهم ووظائفهم، فحينئذ يصبح الزواج حقيقة نافعة لا اكذوبة فاضحة كما نشاهد في عصرنا هذا وهنالك ترفرف روح الطبيعة السامية على الزوجين وتبارك كل قبلة من قبلاتهما، فيوضع الولد محوطا بهالة من حب أبويه وتكون هدية يوم ميلاده، تلك العافية التي يورثها ذريتهما زوجان كلاهما مستجمع من صفات جنسه ما يحبب فيه قرينه »

ونريد الآن بعد هذا أن نتحدث عن الزواج في الريف لنكمل الى حد ما « الصورة الريفية » ، ولكن اذا أمكننا أن نقف على « الحب » عند الرجل والمرأة على السواء في ريفنا حين تحدثنا عن هذا قبل الآن فيمكننا بكل يسر وسهولة أن نتصور وأن نفهم لون الزواج وطريقته في الريف

فتى طيب وفتاة بريئة لا يعرفان من أمر بعضهما شيئاً ، وقد يكون كل منهما مجهولا للآخر كل الجهل، هذا في الشرق وهذه في الغرب ثم يسمعان أو لا يسمعان انهما مخطوبان وأنهما سيصبحان زوجين وسيعيشان معاً تحت سقف واحد وسيكونان عضوي شركة روحية أبدية وسيصيران رأسي أسرة

لماذا كل هذا ؟ لأن الآباء أهون لديهم طعنة الخنجر وضربة الرصاصة التى تصمى وتقتل من أن يعرضوا فتاتهم لخطيبها وشريكها

فى الحياة وفي المستقبل الذي هو ملك لهما وحدهما حتى يعرف من أمرها ولو بعض الشيء وتعرف هي منه ولو بعض هذا البعض ، ولا يزالون للآن يعدون هذا فجورا دونه أي فجور و بدعة ليست بعدها بدعة أتت بها عصور المدنية المتحذلقة الملحدة الفاجرة ، والفتي المسكين يقبل هذا مضطرا ليوفر على نفسه عناء البحث

ومن المدهش بل من الاحتقار للعقول وللنهضة الكبرى ولآمال المستقبل ولبناء عهد جديد وانشاء جيل جديد ، من الاحتقار كل الاحتقار لمبدأ الحرية الفردية وللشعور بالذات وبالكرامة أن تبقى مثل هذه الفكرة الجامدة التعصبية وليدة الماضي المظلم في هذا العصر المتأهب للحياة في اجواء الحرية والنور والعدالة واحترام الشعور والعمل للمستقبل ، من الاحتقار كل الاحتقار « لوحي الاصلاح » ورسالة الاحياء والبعث المصري أن تبقى هذه الفكرة سائدة في أجواء الاسر المصرية وبخاصة الكبيرة منها ، وفات هؤلاء جميعاً بانه لو سرنا على هذا النهج طويلا فسنقضى عاجلا أو آجلا على نظام الأسرة وسنساعد بذلك على جعل البيوت أديراً وصوامع للفتيات الراهبات أو على جعلها مسارح للهو الفاسد والمجون المتهم ، وسنشجع الفتيان والفتيات على الزواج ، ولكن غير الرسمي ، أو بعبارة أدق وأجلى على قضاء حاجات نفوسهم وقلوبهم التي منعها عنهم الزواج الاسمي المعروف ، وفيما نراه الآن أمام أعيننا كل ساعة ما يزيد في خوفنا وقلقنا على الحياة العائلية المصرية التى

نريدها منبعا للسعادة ومصدرا للنعيم والوفاء والحب ! ، ويظهر لنا أن الآباء والامهات لم يتعظوا الى الآن بما حدث نتيجة هذه الفكرة الجامدة السخيفة في عصر لا يتفق مطلقا وكلمة الجمود أو الظلام وأنهم لا يزالون يتجاهلون وينسون بانه لا يمكن — كثيرا — لفتى أو لفتاة يحترم كل منهما نفسه ويقدر مركزه وآماله ومستقبله أن يقبلا على زواج أعمى مبنى على الخفاء والظلام بدون ان يعرف ويفهم كل منهما الآخر معرفة وفهم الشريك للشريك ، ولكننا نؤمن كثيرا بأن الايام وبأن المستقبل وبأن الحياة نفسها ستضطرهم جميعا على العدول عن فكرتهم التي لا تتفق والحاضر ، وسترغمهم على أن يسلكوا الطريق التي يجب أن يسلكها من يفهم الحياة ومن يدرك سنة التطور التي تهيمن على العالم والتاريخ جميعا !

ولكننا لا نريد ان نترك هذه الفرصة قبل ان نقرر هنا حقيقة نؤمن بها ونحرص على أثباتها في سبيل الحق وحده ، وهي ان هذه الفكرة التي تحدثنا عنها أثر أو جانب الجمود فيها أقل فى الريف بين الطبقات الصغيرة جدا منه بين الاسر الكبيرة الريفية او المدنية ، فلقد قلنا ان الفلاح ونقصد به هنا الصغير جدا كما أشرنا الى ذلك فى « المقدمة » يعمل مع المرأة والفتاة في كل نواحي العمل وهي سافرة ، أى أنه في زواجه يكون فى الغالب قد رأى زوجه وهذا اذا كانت من قريته أو من عائلته وإلا فلا يمكنه مطلقا أن يراها ، ولكن نحن نفترض هنا أنهما ليسا من قرية أو بلدة واحدة ولا

من عائلة واحدة ، أي نفترض ونتصور الحالة التي فيها حرية اختيار الزوجين محرمة تحريما مطلقا ، فاذا كان حال الزواج هكذا فماذا يبقى اذن من معنى الزواج الذي نفهمه هنا أو الذي نتطلع اليه وننشده ؟

بعد ان يدبر الآباء مكيدتهم فى كهف الخفاء والظلام ويعزمون على الاعتداء والعبث بمستقبل فتاهم أو فتاتهم ، وبعد أن ينتهيا الى رأي اخير وبعد جريمة الاعتداء على قلبين بريئين ، بعد كل هذا وأخيرا يعلم الخطيبان بخطوبتهما فيقابلان هذا الخبر بصمت ووجوم ولكن في أسى كمين أو حزن دفين ، ثم يؤتي بالمأذون المجرم الثالث بتلك العمامة الكبيرة التي يغش البسطاء والتي قد تطوي بين تلافيفها خير ما وصل اليه الناس من لؤم ونصب وكذب وتزوير ، يؤتى بذلك المحتال الذى يوهم الناس بأنه أرسل من عند الله ليبارك هذا الزواج فيذكرنا بذلك « البابا » الذي أرسل رسوله ليبيع للعباد « صكوك الغفران » ودخول الجنة الموعودة ويمحو سيئاتهم ويعفو عن خطياتهم ، فاذا ماذكرت هذا المحتال الكذاب وذلك « البابا » النصاب ذكرت قول « روسو » : « ما أكثر الوسطاء بيني وبين الله ! » ، يؤتى بهذا المأذون ليكتب تلك التي يسمونها « وثيقة الزواج » ويوهمون الناس وأنفسهم أيضا بأنها عقد نتيج من توافق الارادتين ومن رضى الطرفين المتعاقدين ، قتل الانسان ما اكذبه وما أكفره ! هل هذه الورقة حقا هي صدي شعورهما الحق ومرآة حبهما ومظهر ارادتها ورضاهما لهذه الحياة الجديدة المليئة بالمسئوليات

الجسام وبالاعباء الفادحة والواجبات الكبيرة ؟ هل هذه القطعة من الورق هي الرباط بين قلبين متحابين وروحين مندمجين لاعداد عهد جديد وتحقيق آمال كبيرة ؟ هل هذه الورقة هي كل ما نفهم من الزواج حتي اذا ما حبرها المأذون وشهد الشهود كان الزواج وصدق العقد وكان عملا قانونيا مشروعا صحيحاً ممثلا الارادتين حق التمثيل ؟ ماهذا العبث بالقلوب البريئة الضعيفة أمام قوة المكر وسطوة الكذب ودولة التغرير والخداع ! ماهذا الاعتداء على أجسام غضة طرية وأرواح سابحة حالمة في آمالها وفي مستقبلها ونفوس طاهرة كريمة لم تعرف الخبث والاحتيال ولم تتعود بعد احتمال الاذي والصبر على المكروه والبلاء والقوة على أساغة الكذب وتجميل النصب؟ وهكذا تكتب وثيقة الزواج في معمل الكذب والتزوير وليس للخطيبين أي شأن فيها مباشر ثم يعلن للناس ويذاع ان فلانة خطبت الى فلان وان ليلة الزفاف يوم كذا كأن الامر جد لاهزل وصدق لا كذب وحقيقة لاتدجيل وعدالة لاظلم !

وبهذه المناسبة لانجد غضاضة أن نجرأ برغبة نؤمن بعدالتها وبوجوبها إيمانا قويا مكيناً لنصلح من نظام أسرتنا بحيث يساعد على تسهيل الزواج وجعله وسيلة الى الحب والى السعادة ، وتلك الرغبة القوية هي أن ننظر الى الزواج كانه عقد مدني كأي عقد ونتمه بكل اجراءات العقود المدنية فيتم مثلها بالايجاب والقبول ، واذن فنستغني عن هذا العدد الوفير من المآذين ونستغني عن وساطتهم

ونأمن الطرق التي يتفننون فيها والتي ليست من الشرف ولا من الدين الحق في شيء ، ونسهل بذلك عملية الزواج ونضمن توافق الارادتين ومعرفة الزوجين بعضهما لبعض ونأمن تعسف وتجارة الآباء والامهات بابنائهم وبناتهم ، وفي هذا خير وأمن واصلاح كثير !

والآن وبعد كل هذا نريد ان نصور في حدود خطتنا التي رسمناها لانفسنا طريقة الزواج أو بعبارة أدق وأصح ليلة الزفاف في الريف عند فلاحنا المصري الذي نقصده والذي نكتب هذه الرسالة في سبيله ومن أجله وحده

في ليلة الزفاف الموعودة تزف العروس الى العريس زفافا لا يخلو من البساطة ومن الجمال الريفي أيضا ، وقبل أن يذهبوا بها الى دار زوجها ينقل عفشها عصر يوم الزفاف اما على جمال أو على (عربات الكارو) وحول العفش ومعه تذهب جماعة من أهل العروس واصدقائها ويطلقون الرصاص في الجو اظهارا لفرحهم واعلانا لسرورهم ، والنسوة في طول الطريق يغنين أغنيات الريف الجميلة في بداوتها ، وبعد ذهاب العفش الى دار العريس وبعد الاحتفال به وزفافه يجيء دور العروس فتملأ دارها بالنساء وبالفتيات وبالاطفال الذين يركبون كل مركب خشن الى الوصول الى العريس ليروها في زينة زفافها وفي جمال هندامها ولو يصل بهم الحال الى تسلق الحائط والتطلع من ثقوب الباب أو ثغرة في الجدار أو فجوة

في السقف ، ولكن قد نسيت ! قبل يوم (الدخلة) أو ليلة الزفاف هناك ليلة أخرى لها خطرها وجلالها وعظمتها وهي « ليلة الحنة » (الحناء) حيث يخضبون أيدي العروس ورجليها بعد اغتسالها واستحمامها وهناك في هذه الليلة تجتمع كل فتيات القرية وأطفالها ليتبركن من حناء العروس،والفتاة الناهد التي زين لهاشبابها وصباها وجمالها أن تفكر في الزواج تنافس أخواتها الاخريات على (قرص) العروس في فخذها قائلة لها : «قرصتك في ركبتك حصلتك في جمعتك» ظناً منها أو أملا لها بأنها ستصبح قريبا عروساً مثلها حيث تستمتع بشبابها وتحظي برجلها بغيتها في حياتها،وعندما تعد العروس للخروج الى دار زوجها ووداع دار ابيها التي ترعرعت فيها طفلة ثم فتاة وصبية في احضان الشباب الناعمة الدافئة ، فاما أن تحمل على جمل يغطونه بملاءة حمراء في شكل خيمة أو مثلث وتجلس هي فيه ، ثم يزينون رأس الجمل ورأس المثلث ببعض الورود الحمراء أن وجدت ثم بسعف النخيل المتعالى المتراوح حول العروس وفوقها وهي في هذه الحال مع بعض أهلها أو صديقاتها ، ثم يخرج وراءها على جمال أخرى أو عربات — لو وجدت ولو كان اصحاب العرس ذوي يسار قليلا — بعض نساء القرية وفتياتها زميلاتها في عهود الشباب المرحة اللاهية ببالغهم الصفراء الجديدة وجلاليبهم السوداء الشفافة ومن تحتها الجلاليب الحمراء أو الصفراء ، وقبل أن تخرج العروس من دارها الى دار زوجها يقف أحد أخواتها أو اقاربها على بابها ولا

يسلمها لاحدما حتى يأخذ في يده ما يسمونه « الباصة » ولا يمكنني وانا اخط الآن هذه السطور أن أجزم أو أنكر استمرار هذه العادة القديمة في ريفنا وبين المراتب الدنيا من مراتب فلاحنا ، ولكني شاهدتها بعيني في بعض افراح هذا الصنف من الفلاح الذي اقصده والذي أذيع هذه الرسالة من أجله وحده ؛ وأذكر اني قرأت للمرحوم فتحي زغلول باشا وصفا جميلا للافراح الريفية وذكرا خاصا لهذه العادة التي اذكرها هنا وأصفها ، فمن المدهش اذن حقا أن تبقي مثل هذه العادة المستنكرة في أفراحنا والا تكفي المدة بين كتابة فتحي زغلول وبين عصرنا هذا لمحو وسحق مثل هذه العادة الريفية ؛ ولكننا نأمل أن تنقرض بفعل السنين والزمن !

وعندما يخرج هذا الموكب يحيون العروس بطلقات نارية ذاهبة في الجو وتكاد تصم الآذان من الضجة ، ثم تقف جماعة من الرجال بين حين وحين تلعب بالعصا أو النبوت وهي ما يسمونها « لعبة الحطب » التي ذكرناها ووصفناها حين تحدثنا عن حياة اللهو في ريفنا ، وهذه اللعبة على بساطتها وريفيتها وبداوتها لا تخلو من جمال ولا من لذة فهي ضرب جميل من ضروب الشجاعة القديمة ومظهر من مظاهر النخوة والرجولة ، ويحيي هذا الموكب أيضا جماعات من الفتيات والنساء يزغردن في الاجواء ويغنين جماعات (CHORUS) أغاني لا تخلو أيضا من جمال ، احداهن تغني والاخريات يتبعنها بصوت واحد له جماله وفيه حسنه ، وعلى هذا الضرب من السير يسير موكب

العروس حتى تبلغ دار عريسها وهناك ينتظرها العريس أو أحد أقاربه أو اخواته فيحملها بيده ويدخل بها الى الدار

هذا موكب العروس ، أما العريس فمن الصعب جداً أن تجده أو تراه يوم العرس وبخاصة في عصر اليوم أو في مغربه ، فهو يحاول أن يخفي نفسه عن العيون ، وقبل اسبوع أو اسبوعين لليلة الزفاف يدعوه أحد اصدقائه المخالصين المقربين اليه الى داره للاستحمام والاغتسال عنده ، فاذا كانت ليلة الزفاف الموعودة أخذ هذا الصديق الداعي ملابس العريس الجديدة من عصر اليوم تقريبا ، وفي ساعة الاستحمام يكون أهل القرية جميعها قد علموا بذلك فيذهبون الى دار ذلك الصديق الداعي ويجلسون منتظرين خروج صاحبنا العريس ، فاذا ما انتهى من غسله وانتهى الحلاق من تزيينه وتجميله خرجوا به وسطهم رافعين الشموع والمشاعل أما على أيديهم وأما على رءوس عصيهم الغليظة وأما في (شمعدانات) بسيطة أعدوها لذلك ، وصاحبنا العريس في الوسط أو « واسطة العقد » كما يقول ابن الرومي ، يحمل منديلا أبيض في يده يسد به فمه وأنفه وحواليه عشيرته وأهله وأصدقاؤه مخضّب اليدين بالحناء ، وفي هذا الجمع العديد المؤلف من الرجال والنساء يؤتى ببعض أصدقائه الذين يحسنون فن الغناء والذين وهبهم الله نعمة الصوت الجميل فيتناوبون معا غناء « المواويل » التي تدور جميعها حول الغرام والمغرمين وعذاب الحب وشكايات المحبين ودلال ذوات الجمال ومالكات

القلوب واستبدادهن وعبثهن بما يتملكن من قلوب الرجال وبخل الجميلات بجمالهن وقلوبهن التي لاتعرف الى الرحمة بعشاقها سبيلا ، وبين الحين و الحين تطلق البنادق في الجو بعد الفراغ من القاء المواويل ، ثم تثر النساء بدرات الملح على الرجال في الموكب الزاخر خوفا من الحسد كما أظن ، ثم يستمر الموكب على هذا النهج حتى اذا وصل او اقترب من دار العريس ومعه أصدقاؤه دفعوه بقوة وجروا به بسرعة وانسلوا به بين الجمع العديد الى داره وأدخلوه الى «قاعته» التي خصصها له أهله هو وزوجه فيأخذ بعد ذلك في فض بكارة العروس أو مايسمونه أخذ الفلاح ، أما هم فيقفون بالباب أو خارج الدار ينتظرون خروجه على مضض ويتعجلونه في أنهاء وظيفته ببعض أغاني ساقطة لاتخلو من وقاحة ، فاذا مادخل هو عند عروسه وجد عندها جماعة من النساء من قريباته وقريباتها ، أتين ليشهدن كيف يقوم بهذه العملية الفنية التي هي لديهم من أحسن المشاهد جمالا وأبهرها فتنة ، ولست أدري أى مشهد يكون مشهد فتاة بكر تفض بكارتها على مشهد من المتفرجات المعجبات بهذا المنظر الجميل الفنى البديع كأنهن يشهدن رواية تمثل أو لعبة تلعب ، ولست أدرى ماشعور تلك الفتاة البريئه حين ترى نفسها في هذه الحال المخزية التي لا تتفق مطلقا وأبسط صنوف الشعور والذوق والاخلاق وحين ترى نفسها ملقي الانظار وهدف الابصار ؟ ومن المؤلم جد الألم أن هذه الصورة الفاحشة المخجلة المزرية لاتزال الى الآن مستعملة فى

بيوت الكثيرين جدا من الريفيين ، ولا يزالون ينظرون اليها نظرة الاعجاب والاستحسان ، وحجة هؤلاء النساء اللائي يرتكبن هذه الفاحشة المخجلة أنهن حارسات على عفاف العروس شهداء على طهرها وشرفها ، يالله من اعتداء صارخ على العفة والشرف !

واذا حدث أن العريس لم يحسن هذه العملية لطمته « الماشطة » وأخته عن العروس وقامت هي بعملية فض البكارة ، مشهد مخجل فاحش يذكرنا دائما بحياتنا التي نحياها وبقائنا في هذه الوهدة العميقة من التأخر والانحطاط ، وأخشى أن أقول : الوحشية

وفي أثناء هذه العملية المهمة يتسلق الاطفال والفتيات حائط الدار وينظرن من ثقب أو فجوة الى هذا المشهد الجميل : مشهد فتاة عذراء تفض بكارتها على مرأى من جمع من المتفرجات الحارسات الشاهدات ! ثم يخرج العريس ظافراً منتصراً من كفاح تلك العملية فيقابله أصدقاؤه وأهله بالقبلات والاحضان وتستقبله البنادق بالنيران والطلقات والنساء بالتهليل والزغاريد ، وفي اليوم الثاني تطوف جماعات من النساء في القرية جميعها حاملات قطعة بيضاء من القماش ملطخة بدم العروس الذي هو مظهر شرفها وشارة عفافها وحجة طهرها حتى يرى أهل القرية جميعا أمانة الفتاة على شرفها وحرصها على طهرها ، وهن في هذا التطواف يغنين بعض الاغاني الريفية الملائمة لهذه الحال مثل : « بيضت الشاش ياعروسة ! »

تلك صورة مقتضبة موجزة من أفراح القرى ، ويلاحظ انى

اتحدث هنا عن أصغر مرتبة من مراتب الفلاح المصري كما أخذت نفسي في كل نواحي الرسالة وكما أشرت الى ذلك في مقدمتي ، ولقد دعاني الى اختيار هذا النوع من الفلاح المصري علمي ومعرفتي بأنه يكوّن في الوحدة القومية المصرية الاغلبية الساحقة على حد التعبير الدستوري

ذكرنا قبل الآن أن كلا من الرجل والمرأة في ريفنا المصري ينظر الى الحب ويفهمه بنظرة واحدة وفهم مشترك وتحدثنا عن هذا اللون من الحب كثيراً وقلنا أكثر من ذلك ، قلنا أيضا بأنه يندر جدا أن يكون زواج فى الريف نتيجة لعواطف متشاركة واحساسات متبادلة وشعور بالحب والوفاق والميل ، وقلنا ان الزواج في مصر عامة وفي الريف بخاصة رجعي جداً على أقدم نظم الجمود ووسائل الرجعية ، وبأن نظام هذا الزواج على ماهو عليه في عصرنا هذا لا يتفق مطلقا وروح العصر الحديث ولا مع ميول الناس وتوجيهات عقولهم ومشاعرهم فمن الواجب علينا أن نبحث عن علاج واصلاح لهذا النظام الذي يشوه من جمال نهضتنا ويكاد يهدد بيوتنا وعائلاتنا ويقضي على آمال شبابنا في المستقبل ويشجع على الفساد والغواية أولئك الذين يمنعهم هذا النظام الاعرج الفاسد أن يعيشوا العيشة الزوجية الهادئة السعيدة المحترمة ! !

واذن فقد أصبح من اليسير علينا — كما نظن — أن نتعرف الآن ونفهم ونتصور الحياة الزوجية القروية الداخليه ، فاذا كانت

هي كما قلنا نتيجة الصدف والقسر والأرغام أحيانا لا نتيجة الحب والتعارف وتبادل الاحساس واشتراك الميول والعواطف كما نفهم نحن من الزواج العصري وكما نريد أن يكون في مصر جميعا، فلا تعجب كثيراً اذا رأينا أن هذه الحياة الزوجية الداخلية لا تخلو دائما من نضال وعداء وتجاذب الزوجين، فالمرأة هنالك قل أن تنجو من الضرب والاهانة والتعذيب لأتفه الاسباب وأبسط البواعث

تصور معي أن الرجل قد يوسع امرأته ضربا بالنبوت وما أدراك ما النبوت ! وذلك لأن احدى نساء القرية قد أتت تشكوها الى زوجها ، أو لأنها تحفظ وتدخر لديها بعض نقود له فيحدث أن تمتنع أحيانا عن أن تعطيه ثمن لفافة تبغ ابقاء على نقوده من الضياع وتوفير الشراء وقضاء الحاجات المنزلية الاساسية الأخرى، تصور أن الرجل في ريفنا يجد في مناداته لزوجه باسمها عارا له وتنقيصا من قدره ومن سيادته وسلطانه وكرامته فلا يناديها دائما إلا بهذا النداء العجيب المتكبر الصلف : يا بنت !

واذا ماجلس الى اخوانه أو أصدقائه في مجلس وأراد أن يذكر زوجه فتأبى عليه النعرة والكبرياء الا ان يقول : الاولاد أو العيال خوفا من أن يقول زوجي أو حرمي أو ما اعتاد المتعلمون المستنيرون أن يقولوا !

وتصور أيضا أنه اذا استولد بنتا وجم وعلت وجهه الكآبة والأسى لأنه كان يريد ولدا ولأنه ينظر الى البنت والى النساء عامة

نظرات احتقار وازدراء وانقاص ، ولأنه يرى فى النساء عامة رأي صاحبنا « المعري »:« باعثات ركابك في مهالك مقتمات» « فوارس فتنة أعلام غي» «يلدن اعاديا ويلدن عاراً » « الا ان النساء حبال غي. بهن يضيع الشرف التليد »

بمثل هذا المنظار الاسود الظالم ينظر فلاحنا الى المرأة

ثم تصور معي أخيراً حياة زوجية تستفتح صباحها عند مطلع الشمس الخيرة المحسنة أبغض الحلال الى الله، بالطلاق كما قال النبي الكريم ، ولا يستحي الرجل ولا يتعفف ولا يتحرج أن يقسم بالطلاق مرات ومرات ثم يستأنف حياته الزوجية كأنه لم يفعل شيئاً يمنع هذا الاستئناف بل يبطله ويلغيه وفي هذا يساعده ذلك النصاب الكبير أمس البلاء كما قلنا : المأذون نظير رغيفين أو دعوة عشاء أو كيلة اذرة ا كم من الفلاحين من اذا حادثته عن أي شيء اقسم لك فى الحال يمين الطلاق مرات ومرات في هذر وجده ، فى عمله وسمره في سلمه وحربه، في حديثه وغير حديثه بطلب وبغير طلب، وامرأته المسكينة قابعة فى دارها أو مزاولة أعمالها في حقلها أو في بيتها تجهل كل شيء عن زوجها ، تجهل انه يبيعها ويهدمها ويقضي على أولادها ويتصرف فيها وفى ابنائها الصغار كيف تشاء أهواؤه وتريد جهالته تجهل أنه يعيش معها في حرام يبغضه الله ويمقته أو بعبارة أدق وأجلى تجهل أنه يعيش معها لا في زواج حلال بل في زنا محرم فاجر وكل

ما ترتب على هذا الفساد والحرام فاسد حرام فساد الفرع من الاصل والبناء من الجدار !

المرأة في القرى اذن — كما لاحظت بعيني — لا تعامل من الرجل أكثر مما تعامل الماشية والسوائم ولا ينظر اليها اكثر من أنها «معمل» لتخريج الاطفال كمعامل الكتاكيت الذين يعيشون في قذارة وبيئة أسون وأحب لدينا ان نراهم موتى أو لا نراهم مطلقا من ان نراهم أحياء على هذه الصورة المخجلة القذرة المبكية ، ولا ينظر الى المرأة أيضا اكثر من أنها « وعاء » يصب فيه الرجل لذاته وشهواته الجسمية الزائلة الفانية ! أترضى هذه الحال المبكية ، والمخجلة معا أنصار ونصيرات المرأة!

ومن المؤلم أيضاً بل من المبكي حقا ان الفلاح المصري قد يهون عليه أحيانا ألا يكذب على ولي من الاولياء الصالحين ثم يبيح لنفسه ولدينه ولضميره أن يكذب على ربه وخالقه ! نفسية غامضة غريبة لا تخلو من العجب ولا من الاسى والاشفاق الكثير !

وهكذا تكون حياتنا الزوجية الريفية الداخلية القائمة كما قلنا على الصدف حينا وعلى الجبر والعمى حينا آخر مع ان النبي عليه السلام أشار بوجوب معرفة كل من الخاطب والمخطوبة كل ما يهمهما معرفته قبل الزواج فقال « اذا خطب أحدكم المرأة فأن استطاع ان ينظر منها الى ما يدعوه الى نكاحها فليفعل» وقال عليه السلام المغيرة حين أخبره بأنه خطب امرأة : « انظر اليها فانه أحرى أن يؤدم

بينكما » ولكننا لانريد ان نفكر ولا أن نبحث ولا أن نسير في حياتنا حتي كما كان يسير من قبلنا فضلاعن أن نساير عصرنا ومقتضيات زمننا ! ! الآن وقد تبين لنا مركز المرأة في القري بأزاء الرجل ومعاملة الرجل ونظره اليها ، وبعدان تبين لنا أن هذا التعاقد الجنسي من الرجل والمرأة تعاقد باطل قانونا في أغلب الأحيان وشرعا ودينا أيضا لأنه لم تراع فيه مطلقا شروط التعاقد الاولية التي من أهمها رضاء الطرفين المتعاقدين وتوافق الارادتين المشتركتين في العقد ، ولأنه شرعا ودينا باطل لما يرتكب فيه وباسمه من أمور ينكرها الشرع ويمقتها الدين كتلك الكميات العديدة من القسم واليمين دون احترام لدين ودون خوف أو رقابة من الخالق صاحب الاديان جميعا !

اذا تبين لنا كل هذا فهمنا وتصورنا مقدار خلل الحياة الزوجية فى الريف والفساد السائد فيها ، وأمكننا بذلك فهم العلاقة النفسية الباطنية بين الزوجين هناك : زوجان مات فى كل منهما تقريبا الشعور بالحب اللهم إلا في العلاقات والاحوال الجنسية ، زوجان يعيشان عيشا استبداديا مطلقا يرى الرجل نفسه هو الحاكم والسيد المطلق الباطش بأمره ونفوذه حيث يريد ومتى يشاء ، والمرأة المسكينة تري نفسها مجبرة لأن تخضع وتستذل لرجلها . فلقد تربى فيها روح الاستكانة والخضوع للجبروت وللذل من الرجل ومن غيره فأصبحت تخاف رجلها وترهبه بدلا من أن تحبه وتحترمه ! فهي جاهلة مسكينة

وهو جاهل مسكين والمرأة الجاهلة كما يقول المرحوم قاسم أمين « تجهل حركات النفس الباطنة وتغيب عنها معرفة أسباب الميل والنفور فاذا أرادت ان تستميل الرجل جاءت في الغالب بعكس ذلك »

ولذلك هي لا تعرف مطلقا أن تتقرب منه وتتحبب اليه وذلك لجهلها بهذه الاساليب أولا ولروح الخوف والنفور والجبن الذي غرسها الرجل فيها ثانيا ولكنها قد تحسن هذه الاساليب احيانا الى حد ما اذا كان للرجل زوجات أخرى معها وهذا منتشر بدرجة مخيفة مريعة في الريف رغما من فقر الرجل المبكى وشقائه المفرط ولكن لا تدهش كثيراً فثمن المرأة هناك رخيص جداً وأقصد بها المرأة التي تقابل الرجل الذي اقصده أيضا والذي نوهت عنه في كثير من صفحات هذه الرسالة ، لا تدهش اذن اذا علمت ان الرجل قد يتزوج امرأة بجنيه واحد أو ببضع ريالات حبا في الزواج أو حبا فى النسل

ففى هذه الحالة وحدها اذن قد تتقرب المرأة من الرجل وتتودد وتتملق اليه ليعينها على الزوجة أو الزوجات الاخريات وليهبها حبه وقلبه دونهن جميعا ، وكثيراً ما تنشب المعارك وتحتد الشتائم بين هؤلاء الضرائر استجلابا لحب الرجل ، لا ! لشهوات ولذات الرجل!

والمرأة التي خلقت لتبعث فى البيت جمالا وحياة وسحراً ولتكون جنته أو ملاكه ، ولتجمل لرجلها حياته وتخفف أو تزيل

عنه همومه واعباءه وتشاركه لا جسما فقط بل قلبا وشعوراً وروحا واحساسا فى نعمه وفي بؤسه في تعبه وفى راحته ، وتذهب عنه السآمة والضجر والتعب بما تسري عنه وتلاعبه وتداعبه بأناملها الناعمة الدافئة القطيفية وبأنفاسها الحرى المتصاعدة من قلبها الحب الرحيم النابض وبأحاديثها العذبة المعطرة المتأرجة التي يصفها الشاعر فى قوله :

فمن لؤلؤ تجنيه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

وبنظراتها ولحاظها المستحية الفاترة النافذة الساحرة ، وتربي اولاده تربية صحيحة قوية وتخلق فيه حب الحياة وروح العمل والكفاح

مثل هذه المرأة تكاد تفارق ريفنا وتكاد تكون مجهولة هناك كل الجهل ، اذن فماذا تكون وظيفة المرأة اذا لم تكن لزوجها ملاكا يحرسه وطبيبا يعالجه وفنانا يجعل له الحياة ووحيا يلهمه القوة وحب العمل وقلبا متمما لقلبه وروحا أليفا لروحه ؟ واذا كانت المرأة فى القرى تكاد لا تفهم ولا تقدر واجباتها نحو وظيفتها بأزاء الرجل وبأزاء البيت التي هي ملكته وبأزاء أولادها ، واذا كان الرجل أيضا من هو : لا يفهم واجبه نحو المرأة ولا يعترف لها بمركز محترم سام ولا يقدر وظيفتها فى الحياة ورسالتها في العالم ولا يفهم لها وجوداً ذاتيا مستقلا محترما في حدود عملها ووظيفتها ، فلا ننتظر

مطلقا أن تكون حياتهما الزوجية سعيدة هنيئة كما نفهمه ونحسه حين نتصور ونذكر السعادة والهناءة !

آمال ورغبات

الفصل الخامس

وما هذه الآمال والرغبات إلا آمال ورغبات شاب من ابناء الريف شهد بعينيه هذه الحياة الشقية البالغة أقصى مراتب الشقاوة التى يعيشها الفلاح المصري ويحياها هذا المسكين الطيب ، فلم يشأ أن يكتم آلامه ويسكت أنينه بل رأى انه من الواجب ومن الوفاء للوطن وللقرية ومن الاحترام لنفسه ولضميره أن يجأر بالثورة على هذه الحياة التي تتنافي وكل مظهر من مظاهر الانسانية أو الرحمة فى عصر يقولون كثيراً ويرددون انه عصر الحريات وعصر الانسانية ، وما هذه الآمال والرغبات الا مزيج من الرحمة والاشفاق والألم والأمل والشعور الحق بالقومية والصرخة الحارة للأنفة وللعزة الوطنية والدعوة المبتعثة من الجسم ومن الروح ، المتقطعة من اللحم ومن الدم ، الى الهدم ثم الى الانشاء ، فلقد آن الأوان بأن نعمل